دراســـات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

الأدب بصور البيئة العامة

قلنا إن الأدب هو البيان المعرب عما يكنه ضمير الإنسان ، وما تشعر به عاطفته ، وما يصوره خياله من هذا العالم خيره وشره وجماله وقبحه ؛ فهو صورة للبيئة التى يعيش فيها ، والواقعات التى تنزل به ، والآلام واللذات التى يحسها ، والآمال والمكاره التى يرتقبها

يرى فى إقليمه المروج والرياض فى بهجتها ونضرتها ، والجبال والبحار فى عظمتها وروعتها ، والغابات والصحارى فى وحشتها ومخاوفها ، فيبين عما يرى كما توحى العاطفة ويصور الخيال

ويرى ألواناً من العيش الرغد أو العيش النكد ، وضروباً من السرور واللهو ، أو فنوناً من الحزن والغم

ويرى دولات من الظفر والغلب ، وأخرى من الخيبة والهزيمة ، فيتعاون على الإبانة عن هذا وذاك فكره وعاطفته وخياله

ويشهد شقاقاً فى أمته ، ونزاعاً بين عشيرته ، أو يرى المودة والسلام والألفة والوئام ، فيطبع فى نفسه صورة الشقاق والنزاع والحرب والطعان ، أو يتمثل فى ضميره صور المودة والسلام والحب والأخاء

ويحيط به سلطان جائر يتحكم فى فكره ووجدانه ، ويسومه صنوف الذلة والعذاب ، فيستنيم ويستكين حتى تموت المانى فى وجدانه ، وتجف الألفاظ على لسانه ، أو يأبى مجادلاً ، ويصيح مناصباً ، ويتخذ البيان حجته وسلاحه ، وجداله وكفاحه أو يتاح له سلطان عادل صالح يوسع له فى الحرية ما وسعت الحرية الصالحة ، فينطلق فكره فى المعالم ، ويترجم عما يدرك ويشعر جهد بيانه ، وملء قلمه ولسانه ، لا يخشى حسيباً ، ولا يخاف رقيباً

ثم البيان فى هذا كله على قدر الفكر الساذج والمعارف القليلة ، أو العقل الواسع والعلم الغزير ، يختلف باختلاف مدارك القائل ومعارفه ، ومشاهده وتجاربه

تغير الأدب

فإن يكن الأدب صورة للبيئة والحادثات ، وترجماناً لحالات الأمة ومشاعر الإنسان فتغير هذه الأمور يغير الأدب . فإن كان التغير ارتقاء إلى الأحسن والأعلى مثل الأدب هذا الارتقاء ، وإن كان ارتكاساً فى القبيح والأدنى صوّر الأدب هذا الارتكاس. فالأمم تختلف آدابها باختلاف بيئاتها وأحوالها ، والأمة الواحدة تتغير آدابها بتغير عصورها وأطوارها ، والأفراد فى الأمة الواحدة تختلف آدابهم باختلاف فطرهم ومشاهدهم ، وافتراق حظوظهم من العيش ، وأنصبائهم من المعرفة . وهلم جرّا

المؤثرات فى الأدب

فالمؤثرات التى تغير الأدب كثيرة متشابكة ، ظاهرة وخفية يعسر إحصاؤها والإحاطة بها ، ولكن يمكن تعداد أصولها فيما يأتى:

(ا) البيئة الطبيعية :

إذا تغيرت بيئة الإنسان تغير أدبه ارتقاء أو انحطاطاً ، أو رقياً فى ناحية ونزولاً فى أخرى . والتغير هنا له سببان : الأول اختلاف المرائى والموضوعات بين البيئة الحديثة والبيئة القديمة ، والثانى تغير الإنسان نفسه بتأثير البيئة وذلك لا محالة يظهر فى أدبه

فالعرب حينما هجروا مواطنهم فى الجزيرة إلى العراق وفارس والشام ومصر والمغرب والأندلس تغير أدبهم تغيراً واضحاً : ضعف إحساس البداوة القوى الذى يظهر فى وصف الصحراء والإبل والخيل وحُمُر الوحش والظباء والنعام ، وفى وصف السفر والكد والحروب — واستبدلوا به رفاهية الحضارة ورقة شعورها . فنشأ الشعراء الذين عرفوا فى الأقطار الإسلامية بعد أن اطمأنت الأجيال العربية إلى البيئات التى طرأت عليها

(ب) واختلاف أحوال الحضارة ومنها :

١ — الحال العقلية : فشيوع العلم والفلسفة واتساع المعارف يجعل الأدب أعمق . وأشمل لحقائق العالم ودقائق الطبيعة والحياة . فشعراء الدولة العباسية وشعراء الأندلس (مثلاً) أبعد غوراً

وأوسع مجالاً فى تفكيرهم، وتصويرهم من شعراء الجاهلية ، وصدر الإسلام .

وتأثير المعارف فى الأدب يظهر فى النثر أكثر من الشعر . لأن النثر أولى بمباحث الفكر ، وأقبل للنظر العميق ؛ ولذلك نرى سعة المعارف أبين فى كتابة ابن المقفع والجاحظ، وبديع الزمان والتوحيدى ، وابن العميد ، وابن شهيد ، منها فى شعر أبى نواس والبحترى وأبى فراس . وربما يقارن انتشار العلوم ضعف الأدب لأسباب أخرى كسوء السياسة ، وقلة المكافأة ، والإسراف فى الترف . وليس الضعف من انتشار العلوم ، ولكن من هذه الأحوال المقارنة[1]

فإذا رأينا القرن الخامس الهجرى أوسع علماً وفلسفة من القرنين الثالث والرابع ولكنه فى الجملة أضعف أدباً منهما ، فذلك لا يرجع إلى اتساع المعارف بل يرجع إلى أسباب أخرى

وإذا رأينا الأدب قليلاً بين العلماء المنقطعين للعلوم فذلك بما أغفلوا الأدب أو قلت عنايتهم به ؛ أو لأن فطرتهم التى وجهتهم إلى درس العلوم لا يلائمها درس الآداب . فأما إذا تساوى اثنان فى الفطرة الأدبية والاتجاه إلى الأدب فأوسعهم معرفة أعظمهم أدباً وأقرب إلى نفوس الخاصة من الناس . وربما يفوقهم الآخرون حظوة عند العامة بما شاركوهم فى الشعور ولم يرتقوا عنهم بالمعرفة والفكر كثيراً

٢ — الأحوال الاقتصادية :

إذا شغلت الأمة بتحصيل قوتها وأنفقت معظم وقتها فى كسب معيشتها لم تزدهر فيها العلوم والآداب والصناعات . وإذا وجدت فراغاً بعد تحصيل القوت انصرفت إلى شئون الحضارة من العلم والأدب وغيرها

فانتظام ثروة الأمة ورغد عيشها يُعين على إزهار الآداب بما تجد النفوس من فراغ وبما يكثر أمامها من ألوان الحضارة وبدائع الصناعة والعمران التى تحرك الشعور للبيان

وانظر الحجاز قبل الإسلام وفى صدر الإسلام ثم بعد قرون تجد خلافاً بيناً فى الثروة وفى الشعر . فالعرجىّ وعمر بن أبى ربيعة وكُثيّر وابن قيس الرقيات ، يبينون عن شعور دقيق وإحساس رقيق لم يكن لشعراء الحجاز قبلاً

وانظر ما فعلت مرافق الحضارة بالبحترى فى وصف قصور الخلفاء ، وما وصف شعراء الأندلس من مظاهر العمران والنعيم

وإن يكن إلحاح الفقر أحياناً يجوّد الأدب فى بعض الناس فذلك يكون فى أمة قد مكّنتها ثروتها العامة أن تنتج أدباً . وأما الأمة التى يعمها الفقر وتُبرّح بها الفاقة ، فلا ينبغ فيها أديب إلا على الندرة والشذوذ

عبد الوهاب عزام

(١) وقد يفسر هذا بأن النبوغ العلمى والأدبى يظهران معا ، ولكن الأدب يزهر سريعا ، ويذبل سريعا لدورانه على العاطفة ، والأمور النفسية . والعلم يحتاج إلى مقدمات عقلية ، وأطوار فكرية طويلة إلى أن يحيط الناس بمسائله . ثم إذا أحاطوا بها بقيت العقول قادرة عليها زمنا طويلا وإن ضعف الشعور ، وخمدت العواطف — ألسنا نرى ثورات العواطف فى الانسان سريعة قصيرة — وحالات العقل من العلم والتذكر والحفظ ، ونحوها طويلة المدى . فكذلك حالات الأمم فى العواطف وما يتصل بها والعقل وما يتصل به .

راديو مولت

مركب من المولت مع الفيتامين ولا يوجد به زيت سمك على الاطلاق

لذلك طعمه لذيذ والاطفال يحبونه كثيراً

اذا نقصت كمية الفيتامينات الضرورية للجسم هبطت مقدرته لمقاومة الأمراض وجعلته عرضة لهجماتها وفتكها . فللمحافظة على صحتك وصحة عائلتك خذ كل يوم ملعقة من راديو مولت واعطها لأولادك واجعل ذلك قانوناً يسرى على جميع أفراد عائلتك فتكتسبون جميعكم صحة وعافية على الدوام لأن راديو مولت يحتوى على جميع أنواع الفيتامينات بكميات متناسبة لأنه مركب من المولت الجيد مع أنواع الفيتامين ولا يوجد به زيت سمك على الاطلاق .

نظارات طبية

بمعهد مرزوق

بشارع المرايغ رقم ٤٤

تليفون ٥٥٨٩٤